أمنية الشـــاعر !

الشاعر الحب والجمال لامرتين

بقلم الأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

... وكأنما عز على لامرتين أن يتعب روحه ويضنيها في البحث عن الله ، أو كأنما شعر أنه أوفى من بحثه على الغاية التي يحق للبشر أن يوفوا عليها — فآثر أن يستريح راضياً بأمنية يتمناها مخافة أن يلجئه طول البحث إلى الكفران والجحود ، فتأوه مشتاقاً إلى الحقيقة ، ثم تمنى خاصة واحدة من خواص الملائكة ، فغض بصره عن حياتهم السرمدية ، وعن سعادتهم الأبدية ، ولم يرج سوى الإلهام له وللناس : لأن الإلهام هو الذي أرضى الملائكة بربها فسمعت وأطاعت ، وحرية التفكير هي التي بعثت البشر على الانطلاق فخضعوا طوعاً أو كرهاً ؛ ولكن الذين خضعوا كارهين ما برحوا يستغربون لماذا ألهم الله غيرهم الطاعة فأنشدوا لحن الخلود ، ولم يلهمهم هم فعاشوا في شقاء من بعده جحيم ؟ ..

« ٩ — إن ما أتمناه من الملائكة ليس حياتهم السرمدية ، لا ، ولا سعادتهم الأبدية !

ولكنه الإلهام . هذه الحاسة التي يستطيع بها القلب الجحود ، أن ينشد لحن الخلود ! »

ويخيل إلى الشاعر أن الله أجابه إلى رجيته ، فأنار بصيرته بوميض من الإلهام ؛ فإذا هو لا يكتم فرحه بما يجول في نفسه ، ولكنه يقر بأنه لا يقدر على إبداء هذا المنى السامي الذي انكشف له ، فكان أعظم من الأمواج الصاخبة ، ومن الصواعق الغاضبة ، فيترك سره لليل ليظهر الناس عليه :

« ١٠ — يســـاور نفسي شيء أرق من الصبا اللعوب ، سيذيعه الليل ويُفشيه !

شيء أعظم من الموج ، ومن الصـــاعقة الغضوب ، وقلبي لا يستطيع أن يبديه ! »

ويقارن لامرتين بين هذا الوميض الذي انكشف لبصيرته وبين أسرار الطبيعة التي احتجبت عن بصره ، ويتسمع إلى لحن الوجود النفاذة إلى أعماق النفوس ، فيرى أنه لم يؤت من الإلهام إلا قليلا ، ويرى أن لتسبيح البحر لحناً أوقع من لحنه ، ولجذوع الغابات نغماً أروع من نغمه ، وللعواصف الهوج نشيداً أقوى من نشيده ، وللأنهار الجارية أغاريد أحلى من أغاريده : فالبحر لا يقذف إلى ضفافه أمواجه إلا ليسمع شكواها ، وجذوع الغابات لا ينحني بعضها إلى بعض إلا لتلحن نجواها ، والعاصفة لا تملأ صدر السحاب إلا لتضاعف صوتها في أعماقه ، والأنهار لا تتنفس إلا لتعلم الناس موسيقاها ؛ فلكل منها مزمار يطلق منه أنغاماً تسبح بحمد الله وتقدس له ، وكلٌ قد علم صلاته وتسبيحه ... أما الإنسان فإنه مهما صفت نفسه وراق قلبه يتمنى أن يحسن الغناء كما تحسنه الأمواج ، والجذوع ، والعواصف ، والأنهار ، وكل مظهر من مظاهر الطبيعة البكر ، ثم يجد أمنيته تصاعد في عالم مجهول ، ثم لا يدري أتعود عليه بالإخفاق أو النجاح . إلا أنه أخيراً يحقق فيعلم أن مزماره من صنع يده وهو لا يصنع إلا كاملا ، وأن مزامير الطبيعة من صنع الله وهو لا يصنع إلا كاملا ...

« ١١ — أيها الخضم الذي يقذف إلى ضفافه أمواجه الشاكية !

يا جذوع الغابات المتناجية !

يا عاصفة يتلى بها السحاب ، ويا أنهاراً أنفاسهـــا خرير !

آه ! لو أوتيت هذه المزامير ! »

ويلتفت الشاعر إلى نفسه ، ثم يخاطب روحه التي تمنت كثيراً ولم تجب إلا قليلا ، ويعجب كيف يصبر نفسه مع الحب الذي يضطرم في أحشائه كأنه نار لا ينطفىء لها لهيب ، أو إعصار ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، ويتألم لهذه الروح التي جعلت حب الله صلاتها وتسبيحها ، وتقربت إليه بخوف ندائها ، ولم ترجُه إلا أن يشرق عليها بنور معرفته ، لينقذها من حماسة كلها لهيب ، ومن ذهول كله وحشة ، ثم لم يستجب لها بشيء . ولو شاء أن يستجيب ، لأسر في أعماقها اسمه الحبيب ؛ ولو أسر اسمه لرضيت روح الشاعر ، واطمأن قلبه ، واهتدى عقله .

« ١٢ — وا روحاه ! هذا الإله الذي يضرمك حبه كأنه نار ..

أو تحترقين به كأنه إعصار !

٣٠٠٣٩

لو استجاب — وأنت مشدوهة ذاهلة — لحاستك الحياشة اللاقطة، لأسر اسمه في لفظة واحدة!»

وهنا يهتف بلامرتين صوت خفي : لا تعجل فإن الله يسر اسمه ، وما عليك إلا التلمس زمانه ومكانه لتسمعه : يسر اسمه في أذن الطبيعة فتهمس به شفتاها وهي مختلية في صومعتها ، بعيدة عن الدنيا وضجتها ، قريبة من السماء ورحمتها . . . حينئذ تجلس الطبيعة إلى السماء جلسة المستلم إلى العليم ، فتحفظ منها اسم الله وتناجيه معها ، ثم تنتظران كلتاهما تنفس الصبح ليفضي إليهما بأسرار الملأ الأعلى ، أو ترقبان عسعسة الليل لتسمعا سمر الكواكب ، فما يسمر منها كوكبان ، إلا على ذكر الخالق الرحمان .

« ١٣ — إن هذا الإسم لسر تهمس به الطبيعة في الخلوات ، كما تحفظه السموات !

وكلما طلع الفجر أفضى بهذا السر ، وكلما تسامر كوكبان ، كان صداهما الشجي الفتان!»

ويفرح الشاعر بما ألقى إليه الهاتف ، ويظن أنه وقف منه على السر المنشود ، وأنه قد وصل به إلى اسم المعبود ، فما عليه إلا أن يسهر ليله فيسمع الكواكب السامرة ، أو يثب مع الفجر ليبلي أسراره الباهرة . . وفي هذين الوقتين السعيدين يريد أن تمسي كلها حواسه أذناً تسمع وقلباً يعي ؛ بل يريد أن تمسي العواصف والأعصار ، والأرض والنيران والبحار كلها آذاناً صاغية ، لأن من سكت في هذين الوقتين فإنما يسكت لنفسه ، ومن ضج فإنما يضج عليها . ويريد من الرياح أن تقف لتتلمح هذا الإسم بعد أن طربت بألحانه ، ومن السموات أن تسترجعه وتردده بعد أن تملت بحمرة عرفانه : فقد « خشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً » .

« ١٤ — إن العواصف والإعصار ، والأرض والنيران والبحار ، خليقة أن تسكت لسماعه !

وإن الرياح الطروب بألحانه ، حريه أن تقف لعرفانه ، والسموات لاسترجاعه ! »

وما أحوج المتألم إلى ذكر هذا الإسم العظيم وترداده ، لأن لو سيقاه رنة تشفي السقيم ؛ ومن أجدر من لامرتين بالراحة وهو تعب ، وبالشفاء وهو عليل ، وبالسرور وهو حزين !

لقد كان في الأثناء مضطرب الفكر ، موزع النفس ، متزايل الشاعر ، حتى أنه نظم قصيدته المعروفة (ما الروحي حزينة Pourquoi Mon âme Ea est Triste) فلم يكن أحب إلى قلبه من وسيلة يتحول بها من أزمات نفسه الحادة إلى السكينة والاستقرار

ألا وإنه قد وجد هذه الوسيلة ، وهي التي ستأسو ما جرحته يد الحياة ، وهي التي ستحيل وادي أتراحه جنة أفراح . فليقذف بحزنه بعيداً ، وليلق بأساه ظهرياً ، وليستدبر كل ما يعكر عين قلبه ، وليستقبل الحياة من جديد برضا وارتياح !

وتغمره السعادة وتلابس روحه ، ويضع في كفة ميزان ما نال من لذتها الحاضرة وفي كفة أخرى ما لازمه من ألم التعاسة الماضية ، فيجد نعيمه أرجح ، ويلفي التذاذه أغلب ، فلا يقيم لطول الزمن وقصره وزناً ، ويرى أن لحظة إيمانه تعادل إعدام حياته ، ويخشى أن تفارقه هذه السعادة التي لا يمكن أن تدوم لأنها بسعادة الملائكة أشبه ، وهي بين البشر كالنسيم المطير يضوع بنفحاته ، ثم يعود من حيث أقبل تاركاً هذا المأخوذ رأفته للأعاصير والعواصف ، وللرياح والأنواء ، ينالها وتنالبه ويصارعها فتصرعه .

خاف أن تزايله هذه السعادة إذا بقي على قيد الحياة ، فتمنى أن تكون ختام حياته ، وآخر لحظاته ، ليلقى الحقيقة التي سعى إليها بوجه ناضر ، وليقف في أول شاطىء ما لخضمه من آخر : فأرسل هذه الأبيات الأخيرة بحرارة الشاعر ، وحماسة المؤمن :

« ١٥ — هذا الإسم وحده معاداً غير ممنون قمن أن يأسو سقامي في هذا الوادي من الآلام !

فجدير بي أن أهتف غير محزون : لينصرم آخر أيامي ، فقد مجدت الإله ، ومرحى بالحمام!»

وإنك لتحس في هذه القصيدة روحاً متصوفة تذكرك بالذين سلفوا من أصحاب النزعة الروحية المجردة ، فمن أين لهذا الشاعر مثل هذه الروح ؟

ويزول عجبك متى علمت أن لامرتين — وإن لم يتلق التصوف علماً ، أو يذقه مسلكاً — كان صوفي المزاج ، مستعداً